البلدان والأقطار

إعلم وفقنا الله وإياك أن بين مطلع الشمس ومغربها مدناً وبلاداً وأنهاراً لا تحصى كثرةً، ولا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى. ولكن نذكر منها ما ذكره فائدة واعتبار من البلاد المشهورة، ونضرب صفحاً عن ذكر ما ليس بمشهور، ولا اعتبار ولا فائدة في ذكره خوفاً من التطويل والسآمة، والله تعالى المستعان.

فنبتدئ أولاً بذكر بلاد المغرب إلى المشرق، ثم نعود إلى بلاد الجنوب وهي بلاد السودان، ثم نعود إلى بلاد الشمال وهي بلاد الروم والأفرنج والصقالبة وغيرهم، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى: أرض المغرب أولها البحر المحيط، وهو بحر مظلم لم يسلكه أحد ولا يعلم سر ما خلفه. وبه جزائر عظيمة كثيرة عامرة يأتي ذكرها عند ذكر الجزائر، منها جزيرتان تسميان الخالدتين، على كل واحدة منهما صنم[1] طوله مائة ذراع بالملكي، وفوق كل صنم منها صورة رجل من نحاس يشير بيده إلى خلف، أي: ما ورائي شيء ولا مسلك. والذي وضعهما وبناها لم يذكر له اسم.

فأول بلاد المغرب **السوس الأقصى**[2] وهو إقليم كبير فيه مدن عظيمة أزلية وقرى متصلة وعمارات متقاربة، وبه أنواع الفواكه الجليلة المختلفة الألوان

---

(١) الصنم Idol : الصنم هم ما تخذ إلها من دون الله، وقد فرق بعض العلماء بين الصنم والوثن فقالوا إن الوثن هو ما صنع من الحجارة، والصنم ما صنع من مواد أخرى كالخشب أو الذهب أو الفضة أو غيرها من الجواهر، وقال البعض : إن الصنم ما كان له صورة أم الوثن فهو مالا صورة له.

(٢) السوس الأقصى : مدينة في نهاية عمران المغرب فيما وراء الأندلس في الساحل الجنوبي من بحر الروم.

والطعوم، وبه قصب السكر الذي ليس على وجه الأرض مثله طولاً وغلظاً وحلاوة حتى قيل: إن طول العود الواحد يزيد على عشرة أشبار في الغالب، ودوره شبر، وحلاوته لا يعادلها شيء حتى قيل: إن الرطل[1] الواحد من سكره يحمل عشرة أرطال من الماء وحلاوته ظاهرة. ويحمل من بلاد السوس من السكر ما يعم جميع الأرض لو حمل إلى البلاد، وبها تعمل الأكسية الرفيعة الخارقة، والثياب الفاخرة السوسية المشهورة في الدنيا، ونساؤها في غاية الحسن والجمال والظرف والذكاء، وأسعارها في غاية الرخص، والخصب بها كثير.

فمن مدنها المشهورة ما رودنت وهي مدينة العظماء من ملوك المغرب، بها أنهار جارية وبساتين[2] مشتبكة وفواكه مختلفة وأسعار رخيصة. والطريق منها إلى أغمات أريكة في أسفل جبل، ليس في الأرض مثله إلا القليل في العلو والارتفاع وطول المسافة واتصال العمارة وكثرة الأنهار والتفاف الأشجار والفواكه الفاخرة التي يباع منها الحمل بقيراط من الذهب. وبأعلى هذا الجبل أكثر من سبعين حصناً وقلعة، منها حصن منيع هو عمارة محمد بن تومرت[3]، ملك المغرب، إذا أراد أربعة من الناس أن يحفظوه من أهل الأرض حفظوه لحصانته، اسمه تأملت. ولما مات محمد بن تومرت المذكور بجبل الكواكب حمل ودفن في هذا الحصن.

---

(١) الرطل : اثنتا عشرة أوقية بأواقي العرب والأوقية : أربعون درهماً.

(٢) البستان : الحديقة وهي فارسية معربة من بو : الرائحة و ستان : المكان (اللسان ١ / ٢٧٩).

(٣) ابن تومرت : مؤسس دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين ينتمي إلى قبيلة هرغة إحدى القبائل المصمودية المستقرة بالأطلس الصغير بمنطقة سوس الأقصى المغربية. ولد في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري ببلاد المغرب الأقصى، وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة مولده اشتهر منذ صغره بالتقوى والورع.وقد امتاز بمواظبته على الدراسة والصلاة، إلى حد أنه اشتهر لدى قبيلته باسم"أسفو" أي المشعل. رحل إلى بلاد المشرق ليكمل تحصيله ويعمق معارفه في أهم المراكز العلمية هناك.ويزعم أنه التقى بأبي حامد الغزالي صاحب كتاب إحياء علوم الدين ثم رجع إلى المغرب. يقول عنه ابن خلدون: «بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين» فأثار الإعجاب بعلمه وورعه وتعلق به وبأفكاره كثير من الناس وعلى رأسهم "عبد المؤمن بن علي الكومي" الذي التقى بابن تومرت بقرية ملالة ففضل ملازمته واتباع نهجه وطريق مسيرته. لقد ركز ابن تومرت دعوته في مواجهته لفقهاء المالكية على أسس دينية وأخلاقية واجتماعية ووافاه الأجل في شهر رمضان ٥٢٤ هـ.

وأذكى: وهي أول مراقي الصحراء وهي مدينة متسعة، وقيل إن النساء التي فيها لا أزواج لهن، إذا بلغت إحداهن أربعين سنة تتصدق بنفسها على الرجال فلا تمتنع ممن يريدها.

سجلماسة[1]: من مدنها المشهورة، وهي واسعة الأقطار عامرة الديار رائعة البقاع فائقة القرى والضياع. غزيرة الخيرات كثيرة البركات. يقال إنه يسير السائر في أسواقها نصف يوم فلا يقطعها، وليس لها حصن بل قصور شاهقة وعمارات متصلة خارقة، وهي على نهر يأتي من جهة المشرق وبها بساتين كثيرة وثمار مختلفة، وبها رطب يسمى النوبي، وهو أخضر اللون حسن المظهر أحلى من الشهد ونواه في غاية الصغر. ويقال إنهم يزرعون ويحصدون الزرع ويتركون جذوره وأصوله في الأرض على حالها قائمة، فإذا كان في العام المقبل وعمه الماء نبت ثاني مرة واستغله أربابه، من غير بذر، وبها يأكلون الكلاب والجراذين وغالب أهلها عمش العيون.

---

(١) سجلماسة : من تأسيس بني مدرار الخوارج أواسط القرن الثاني الهجري، وقد حدد كثير من المؤرخين ذلك بعام: ١٤٠ هـ. وذكر ابن أبي محلّي: أن تأسيسها كان على أيدي العرب الفاتحين عام : ٤٠ هـ ثم وسعها بنو مدرار، فكانت عاصمة لتلك الدولة، إلى أن استولى عليها الفاطميون ملوك القيروان، فأدرت عليهم أموالا طائلة باعتبارها مركزا تجاريا مهما في طرق القوافل المتجرة في السودان، ولما قامت دولة المرابطين ... رجعت إلى حكم المغرب وظلت عامرة كذلك أيام الموحدين والمرينيين إلى أن خربت قبيل قيام دولة السعديين، ويقول محمد بن الحسن الوزان – في سبب خراب سجلماسة – : " وقد استولى بنو مرين على هذا الإقليم، بعد اضمحلال مملكة الموحدين، وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم، وخاصة أبناءهم، وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، فثار الإقليم، وقتل أهل البلاد الوالي، وهدموا سور المدينة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا، وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة، ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حر، وبعضها خاضع للأعراب، تعتبر من أعظم حواضر المغرب التاريخية، وأشهر مدنه التجارية والعلمية، وقلما يخلو مؤلف في التاريخ العام أو الخاص، وكذا كتب الجغرافية، من ذكر سجلماسة - بسطا أو اختصاراً - باعتبارها مدينة سياسية واقتصادية وعلمية (انظر: تقييد في التعريف بسجلماسة.مخطوط:م.م.رقم ٢٤.٣٦.نقلا عن حاشية لمحمد حجي. ومحمد الأخضر. على (وصف إفريقية) للوزان. ٢/ ١٢١ .ون-أيضا-(الاستقصا) للناصري (١/ ١٢٤)، وصف إفريقية)٢/ ١٢١. ترجمة: د. حجي. و د. محمد الأخضر)

ورقادة[1]: وهي مدينة عظيمة حصينة خصيبة. ذكر أهل الطبائع أنه يحصل للرجال بها الضحك من غير عجب، والسرور من غير طرب، وعدم الهم والنصب، ولا يعلم لذلك موجب ولا سبب.

أغمات[2]: وهي مدينتان: أغمات أريكة وهي مدينة عظيمة في ذيل جبل كثير الأشجار والثمار والأعشاب والنباتات، ونهرها يشقها وعلى النهر أرحية كثيرة تدور صيفاً وفي الشتاء يجمد الماء ويجوز عليه الناس والدواب، وبها عقارب قتالة في الحال، وأهلها ذوو أموال ويسار ولهم على أبوابهم علامات تدل على مقادير أموالهم. وأغمات إيلان وهي مدينة كبيرة في أسفل جبل يسكنها يهود تلك البلاد.

فاس[3]: وهي مدينة كبيرة ومدينة صغيرة يشقها نهر كبير يأتي من عيون صنهاجة وعليه أرحاء كثيرة. وتسمى إحدى هاتين المدينتين الأندلس ومياهها قليلة والأخرى القرويس وهي ذات مياه كثيرة يجري الماء في كل شارع منها، وسوق وزقاق[4] وحمام ودار، وفي كل زقاق ساقية متى أراد أهل الزقاق أن يجروها أجروها وإذا أرادوا قطعها قطعوها.

---

(١) رقادة : مدينة بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلبي سنة ٢٦٣هـ، وقيل في تسميتها أكثر من سبب، من هذه الأسباب، أنها سميت (رقادة) لكثرة القتلى فيها، انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، جـ٣، ص ٥٥ وتعد رقادة المدينة الثانية بعد القيروان التي اتخذها الأمراء مقرّا لهم، وتقع على بعد ١٠ كلم. من جنوبها الشرقيّ. أمّا اليوم، فلم تبق منها إلاّ آثار قليلة.

(٢) أغمات Aghmat : ناحية من جنوب المغرب تقع على نهير بهذا الاسم ينبع من جبال اطلس يتجه احد فروعه غربا الى مراكش، استولى عليها المرابطون عام ٤٤٩ هـ وجعلها يوسف بن تاشفين حاضرة له حتى بنى مدينة مراكش عام ٤٥٤ هـ وفيها نفي وتوفى المعتمد بن عباد آخر امراء اشبيلية (القاموس الإسلامي، ج١، ص ١٤٠).

(٣) مدينة فاس هي ثالث أكبر مدن المملكة المغربية بعد الدار البيضاء والرباط بعدد سكان يزيد عن ٩٤٦ ألف نسمة (إحصائيات ٢٠٠٤ م). تعد فاس مدينة تاريخية عريقة وهي أول عاصمة سياسية للمغرب، يعود تاريخ مدينة فاس إلى القرن الثاني الهجري، عندما قام بتأسيسها إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة عام ١٧٢هـ الموافق لعام ٧٨٩ م. في التاريخ الحديث، كانت فاس عاصمة للمملكة المغربية حتى عام ١٩١٢ م فترة الاحتلال الفرنسي والتي استمرت حتى ١٩٥٦ م وتم فيها تحويل العاصمة إلى مدينة الرباط.

(٤) الزقاق : طريق ضيق غير نافذ وهو دون السكة والسكة دون الدرب والشارع وقد يطلق على الزقاق على الطريق الضيق عامة نافذا او غير نافذ (القاموس الاسلامي، ج٣، ص ٦٥).

المهدية[1]: مدينة حسنة حصينة بناها المهدي الفاطمي[2] وحصنها وجعل لها

---

(١) خاب أمل أهل المغرب في عبيد الله المهدي، وساء ظنهم به بعد أن ذهبت الوعود التي وعدهم بها أبو عبد الله الشيعي سُدى، فلم ينقطع الفساد بخلافة المهدي، ولم يحل العدل والإنصاف محل الظلم والجور، بالإضافة إلى السياسة المالية المتعسفة التي انتهجها الفاطميون في جمع الضرائب، والتفنن في تنويعها حتى فرضوا ضريبة على أداء فريضة الحج، وزاد الأمر سوءا قيام عبيد الله المهدي ودعاته بسبّ الصحابة على المنابر فيما عدا علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والتغيير في صيغة الأذان، وهو ما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة، وتعصّب لمذهب الإمام مالك، وكان من نتيجة ذلك أن اشتعلت عدة ثورات ضد عبيد الله المهدي، ولكنه وإن نجح في إخمادها فإنه أصبح غير مطمئن على نفسه في مجتمع يرفض مذهبه ويقاطع دولته مقاطعة تامة؛ ولذا حرص على أن يبعد عن السكنى في رقادة مركز المقاومة السُنّي، وأسس مدينة جديدة عُرفت باسم "المهدية" في سنة (٣٠٣هـ= ٩١٥م) على طرف الساحل الشرقي لإفريقية (تونس) فوق جزيرة متصلة بالبر، ولم ينتقل إليها إلا في سنة (٣٠٨هـ= ٩٢٠م) بعد أن استكمل بناءها وتشييدها، وأقام تحصيناتها ومرافقها المختلفة، وأصبحت المهدية قلعة حصينة للفاطميين بالمغرب ومركزا لعملياتهم الحربية والبحرية، وظلت حتى مطالع العصر الحديث أكبر مركز إسلامي للجهاد في البحر المتوسط.

(٢) لا يستطيع أحد القطع برأي حاسم في نسب "عبيد الله المهدي"، فالشيعة الإسماعيلية يؤكدون صحة نسبه إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، في حين يذهب المؤرخون من أهل السُنّة وبعض خصوم الفاطميين من الشيعة إلى إنكار نسب عبيد الله إلى علي بن أبي طالب.خرج عبيد الله المهدي من مكمنه في "سلمية" من أرض حمص ببلاد الشام في سنة (٢٩٢ هـ = ٩٠٥م)، واتجه إلى المغرب، بعد الأنباء التي وصلته عن نجاح داعيته أبي عبد الله الشيعي في المغرب، وإلحاح كتامة في إظهار شخصية الإمام الذي يقاتلون من أجله، وبعد رحلة شاقة نجح عبيد الله المهدي في الوصول إلى "سجلماسة" متخفيا في زي التجار، واستقر بها.ومن ملجئه في سجلماسة في المغرب الأقصى أخذ عبيد الله المهدي يتصل سرّا بأبي عبد الله الشيعي الذي كان يطلعه على مجريات الأمور، ثم لم يلبث أن اكتشف "اليسع بن مدرار" أمير سجلماسة أمر عبيد الله؛ فقبض عليه وعلى ابنه "أبي القاسم" وحبسهما، وظلا في السجن حتى أخرجهما أبو عبد الله الشيعي بعد قضائه على دولة الأغالبة.وكان أبو عبد الله الشيعي حين علم بخبر سجنهما قد عزم على السير بقواته لتخليصهما من السجن، فاستخلف أخاه "أبا العباس" واتجه إلى سجلماسة، ومر في طريقه إليها على "تاهرت" حاضرة الدولة الرسمية فاستولى عليها، وقضى على حكم الرّستميين، وبلغ سجلماسة = فحاصرها حتى سقطت في يده، وأخرج المهدي وابنه من السجن.ويذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الشيعي حين أبصر عبيد الله المهدي ترجّل وقابله بكل احترام وإجلال، وقال لمن معه: هذا مولاي ومولاكم قد أنجز الله وعده وأعطاه حقه وأظهر أمره.وأقام أبو عبد الله الشيعي وعبيد الله المهدي في سجلماسة أربعين يوما، ثم رحلوا عائدين فدخلوا رقادة في يوم الخميس الموافق (٢٠ من شهر ربيع الآخر ٢٩٧هـ= ٧ من يناير ٩١٠م).وخرج أهل القيروان مع أهل رقادة يرحبون بالإمام المهدي، وفي يوم الجمعة التالي أمر عبيد الله أن يُذكر اسمه في الخطبة في كل من رقادة والقيروان، معلنا بذلك قيام الدولة الفاطمية.استهدف

أبواباً من حديد، في كل باب ما يزيد على مائة قنطار، ولما بناها وأحكمها قال: أمنت الآن على الفاطميين.

سبتة[1]: مدينة في بر العدو قبالة الجزيرة الخضراء، وهي سبعة أجبل صغار

عبيد الله الفاطمي منذ أن بويع بالخلافة واستقامت له الأمور أن يدعم مركزه، وأن تكون كل السلطات في يديه، وأن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة والدعوة الإسماعيلية، وأنشأ دولة بدهائه وذكائه قبل سيفه وقوته.وخاب أمل أهل المغرب في عبيد الله المهدي، وساء ظنهم به بعد أن ذهبت الوعود التي وعدهم بها أبو عبد الله الشيعي سُدى، فلم ينقطع الفساد بخلافة المهدي، ولم يحل العدل والإنصاف محل الظلم والجور، بالإضافة إلى السياسة المالية المتعسفة التي انتهجها الفاطميون في جمع الضرائب، والتفنن في تنويعها حتى فرضوا ضريبة على أداء فريضة الحج.وكان من نتيجة ذلك أن اشتعلت عدة ثورات ضد عبيد الله المهدي، ولكنه وإن نجح في إخمادها فإنه أصبح غير مطمئن على نفسه في مجتمع يرفض مذهبه ويقاطع دولته مقاطعة تامة؛ ولذا حرص على أن يبعد عن السكنى في رقادة مركز المقاومة السُنّي، وأسس مدينة جديدة عُرفت باسم "المهدية" في سنة (٣٠٣هـ= ٩١٥م) على طرف الساحل الشرقي لإفريقية (تونس) فوق جزيرة متصلة بالبر، ولم ينتقل إليها إلا في سنة (٣٠٨هـ= ٩٢٠م) بعد أن استكمل بناءها وتشييدها، وأقام تحصيناتها ومرافقها المختلفة، وأصبحت المهدية قلعة حصينة للفاطميين بالمغرب ومركزا لعملياتهم الحربية والبحرية، وظلت حتى مطالع العصر الحديث أكبر مركز إسلامي للجهاد في البحر المتوسط.

(١) سبتة : seuta : تقع مدينة سبتة في موقع كبير الأهمية، سواء بالنسبة لموقعها الجغرافي على البحر المتوسط، وتقابل الأراضي الأسبانية، أو بالنسبة لاعتبارها كمنطلق أساسي لجميع الجيوش الإسلامية التي عبرت البحر،باتجاه الأندلس، وتشير الروايات التاريخية إلى أهمية موقع هذه المدينة، لأنها تطل على جميع السفن التي تعبر جبل طارق، فضلا عن أهمية مرساها البحري كقاعدة تجارية وحربية، حتى سميت (باب الجهاد).وكانت سبتة خاضعة للحكم الروماني الذي حكم المغرب لمدة قرون، ثم استطاع الوندال أن يزيل الحكم الروماني نهائيا، وأن يستمر في حكم المغرب لمدة قرون تقريبا، ثم خلفهم البيزنطيون لفترة وجيزة، وسرعان ما كانت جيوش الفتح الإسلامي بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد، تتقدم بقوة وثبات في شمال افريقيا والأندلس لتقيم أول دولة إسلامية في الغرب الإسلامي..وكانت مدينة سبتة إحدى أهم المدن التي فتحها المسلمون الأوائل، وانطلقوا منها إلى الأندلس،في أول سَريةٌ إسلامية بقيادة طريف بن مالك سنة ٩١ هجرية، وبعد عام انطلق منها الجيش الإسلامي نحو الأندلس وأصبحت مدينة سبتة خلال عصر المرابطين من أهم مراكزهم الحربية،وأقام فيها يوسف بن تاشفين مدة من الزمن، لكي يتمكن من أن يتابع بنفسه الإشراف على الجيش الإسلامي ونصرة إخوانهم في الأندلس. ومما يؤكد هذا الازدهار العلمي والحضاري والتجاري الذي شهدته المدينة قبل الغزو البرتغالي، هو الإحصائيات التي استخرجت من كتاب (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار)لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي الذي ذكر أن المدينة اشتملت على: ١٠٠٠ مسجد،و٦٢ خزانة علمية، و٤٧ رباط وزاوية، و٢٢ حماما، ١٧٤

متصلة عامرة ويحيط بها البحر من ثلاث جهاتها. وفيها أسماك عظيمة ليست في غيرها. وبها شجر المرجان الذي لا يفوقه شيء حسناً وكثرة، وبها سوق كبيرة لإصلاح المرجان، وبها من الفواكه وقصب السكر شيء كثير جداً.

طنجة[1]: هي في العدوة أيضاً وكذلك فاس وباقي المدن المشهورة كافريقية وتاهرت ووهران والجزائر والمقل والقيروان فكلها مدن حسنة متقاربة المقادير. والله سبحانه وتعالى أعلم

الغرب الأوسط: وهو شرق بلاد البر، ومن مدنه بلاد الأندلس وسميت بالأندلس لأنها جزيرة مثلثة الشكل رأسها في أقصى المغرب في نهاية المعمورة، وكان أهل السوس وهم أهل المغرب الأقصى يضرون أهل الأندلس في كل وقت ويلقون إليهم الجهد الجهيد إلى أن اجتاز بهم الإسكندر[2] فشكوا إليه حالهم فأحضر

سوقا، ٢٤٠٠٠ حانوتا،و ٣٦٠ فندقا، و٣٦٠ فرنا،إضافة الى أنواع الفواكه والورود،وهذا كله يدل على الازدهار الفكري والحضاري الذي وصلت إليه مدينة سبتة في عصرها الإسلامي، قبل أن تسقط بيد البرتغال، ثم تصبح بعد ذلك مدينة اسبانية في أرض عربية مسلمة.

(١) مدينة طنجة (بالإنجليزية: Tangier) في شمال المغرب بعدد سكان يقارب ٣٥٠،٠٠٠ أو ٥٥٠، ٠٠٠ بضواحيها. تتميز طنجة بكونها نقطة التقاء بين البحر الأبيض المتوسط و المحيط الأطلسي من جهة، و بين القارة الأوروبية و القارة الافريقية من جهة أخرى. طنجة هي عاصمة جهة طنجة تطوان.

(٢) الإسكندر الأكبر أو الإسكندر المقدوني : حاكم مقدونيا، قاهر إمبراطورية الفرس وواحد من أذكى و أعظم القادة الحربيين على مر العصور.ولد الأسكندر في بيلا، العاصمة القديمة لمقدونيا. ابن فيليبّوس الثاني ملك مقدونيا و ابن الأميرة أوليمبيا أميرة سيبرس. وكان أرسطو المعلم الخاص للأسكندر. حيث درّبه تدريبا شامل في فن الخطابة و الادب و في صيف (٣٣٦) قبل الميلاد أغتيل فيليبّوس الثاني فاعتلى العرش ابنه الإسكندر فوجد نفسه محاطاً بالأعداء من حوله ومهدد بالتمرد و العصيان من الخارج. فتخلص مباشرة من المتآمرين و أعدائه من الداخل بالحكم عليهم بالاعدام. ثم انتقل إلى ثيساليا حيث حصل حلفائه هناك على استقلالهم و سيطرتهم. و باستعادة الحكم في مقدونيا. قبل نهاية صيف (٣٣٦) قبل الميلاد، أعاد تأسيس موقعه في اليونان وتم اختياره من قبل الكونغرس في كورينث قائداً.وكان الإسكندر من أعظم الجنرالات على مر العصور حيث وصف كتكتيكي و قائد قوات بارع و ذلك دليل قدرته على احتلال كل تلك المساحات الواسعة لفترة وجيزة. قبل أن يموت بفترة وجيزة أمر الإسكندر الإغريق بتمجيده و عبادته كإله، و أرجعها لأسباب سياسية و لكن هذا القرار سرعان ما ألغي بعد موته. أهم ما قام به دخوله مدينة الإسكندرية (التي سميت بإسمه) و تغييرها تغييرا جذريا حيث أبدا لها اهتماما خاصا و كانت مهيئة بالمكان الاستراتيجي الجيد و وفرة الماء حيث أقبل عليها في عهده التجار و الطلاب و العلماء و جميع

المهندسين وحضر إلى الزقاق، وكان له أرض جافة، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي ونقلها من الحضيض إلى الأعلى، ثم أمر أن تحفر الأرض بين طنجة وبلاد الأندلس فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجير بناء محكماً وجعل طوله اثني عشر ميلاً، وهي المسافة التي كانت بين البحرين، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين ستة أميال. فلما أكمل الرصيفين حفر لها من جهة البحر الأعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين ودخل في البحر الشامي. ثم فاض ماؤه فأغرق مدناً كثيرة وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشاطئين، وطغى الماء على الرصيفين إحدى عشرة قامة. فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بيناً مستقيماً على خط واحد، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة، وأما الرصيف الذي من جهة طنجة فإن الماء حمله في صدره واحتفر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً، وعلى طرفه من جهة الشرق الجزيرة الخضراء، وعلى طرفه من جهة الغرب جزيرة طريف. وتقابل الجزيرة الخضراء في بر العدوة سبتة، وبين سبتة والجزيرة الخضراء عرض البحر.

والأندلس[1] به جزائر عظيمة كالخضراء[2]، وجزيرة قادس[3]، وجزيرة

الفئات و بهذه الإنجازات أصبحت اللغة اليونانية واسعة الانتشار و مسيطرة على لغات العالم.

(١) الأندلس : أطلق المسلمون أسم الأندلس على القسم الذي فتحوه من شبه الجزيرة الأيبرية وهى تعريباً لكلمة " فانداليشيا " التى كانت تطلق على الاقليم الرومانى المعروف باسم باطقة الذى احتلته قبائل الفندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاماً ويسميهم الحميرى بالأندليش ويرى البعض أنها مشتقة من قبائل الوندال التى أقامت بهذه المنطقة مدة من الزمن، ويرى البعض الآخر أنها ترجع الى أندلس بن طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام والأندلس فتحها القائد طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ-٧١١ م.

(٢) الجزيرة الخضراء : تقع أقصى جنوب أسبانيا الحاليه قبالة السواحل المغربيه لصيقه بجبل طارق وقريبه من طريف.

(٣) قادس : جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن إشبيلية، وطول جزيرة قادس من القبلة إلى الجوف اثنا عشر ميلاً، وعرضها في أوسع المواضع ميل، وبها مزارع كثيرة الريع، وأكثر مواشيها المعز، فإذا رعت معزهم خروب ذلك المكان عند عقدها، واسكر لبنها، وليس يكون ذلك في ألبان الضان. وقال

طريف[1]، وكلها عامرة مسكونة آهلة.

ومن مدنه إشبيلية[2] وهي مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، وعليه جسر[3] مربوطة به السفن، وبها أسواق قائمة وتجارات رابحة وأهلها ذوو أموال عظيمة وأكثر متاجرهم في الزيت، وهي تشتمل على كثير من أقاليم الشرق، واقليم الشرق على تل عال من تراب أحمر مسافته أربعون ميلاً في مثلها، يمشي فيها المسافر في ظل الزيتون والتين، ولها على ما ذكر التجار ثمانية آلاف قرية عامرة بالأسواق العامرة والديار الحسنة والفنادق والحمامات.

ومن أقاليم الأندلس اقليم الكنانية ومن مدنه المشهورة **قرطبة**[4] وهي قاعدة

صاحب الفلاحة النبطية: بجزيرة قادس نبات رتم إذا رعته المعز أسكر لبنها إسكاراً عظيماً؛ وأهلها يحققون هذه الخاصية.وفي طرف الجزيرة الثاني حصن خرب أولى، بين الآثار، وبه الكنيسة المعروفة بشنت بيطر(سان بيتر)، وشجر المثنان كثير بهذه الجزيرة، وبها آثار للأول كثيرة.ومن أعجب الآثار بها الصنم المنسوب إلى هذه الجزيرة، بناه أركليش، وهو هرقليس، أصله من الروم الإغريقيين، وكان من قواد الروم وكبرائهم.

(١) نسبة إلى طريف بن مالك الذي قاد حملة سنة 92هـ / ٧١١م للإطلاع على أحوال الأندلس بأمر من موسى بن نصير، ففخرج ي مائة فارس وأربعمائة رجل، وركب هو وجنوده البحر في أربعة مراكب حتى نزل ساحل الأندلس فأصاب سبيًا كثيرًا ومالاً وفيرًا، ثم رجع إلى المغرب غانمًا سالمًا واستولى على جزيرة صغيرة، لا تزال تحمل اسمه (تريفا Isla de Tarifa) راجع (ابن حبيب : استفتاح الأندلس، تحقيق محمود مكي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، عدد ٥، ١٩٥٧ م، ص ٢٢٢، وابن عذاري البيان المغرب، ج٢، ص ٢٥٦، والنفح، ج١، ص ٣٩٥).

(٢) إشبيلية (بالاسبانية:Sevilla) هي عاصمة منطقة الأندلس ومحافظة إشبيلية في جنوب اسبانيا، و تقع على ضفاف نهر الوادي الكبير. يزيد عدد سكان المدينة بضواحيها عن ١.٥ مليون نسمة. اشتهرت أيام الحكم الإسلامي لاسبانيا وكان عبد الرحمن الثاني قد أمر ببناء أسطول بحري ودار لصناعة الأسلحة فيها في أواسط القرن التاسع الميلادي من أشهر حكامها المعتمد بن عباد وسميت (حمص) نسبة لنزول جند الشام فيها اثناء الفتح الاسلامي. من معالمها منارة الخيرالدا التي بنيت بأمر من السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي.

(٣) الجسر : القنطرة والجمع أجسر (اللسان ١ / ٦٢٣).

(٤) قرطبة (بالإسبانية:Córdoba) مدينة وعاصمة مقاطعة تحمل اسمها بمنطقة الأندلس في جنوب إسبانيا وتقع على نهر جوادالكبير.و على دائرة عرض (38) شمال خط الاستواء يبلغ عدد سكانها حوالي ٣١٠،٠٠٠ نسمة. اشتهرت أيام الحكم الإسلامي لإسبانيا حيث كانت عاصمة الدولة الاسلامية هناك. من أهم معالمها مسجد قرطبة، وصلت المدينة لأوج مجدها في القرن العاشر في عهد

بلاد الأندلس ودار الخلافة[1] الإسلامية، وهي مدينة عظيمة وأهلها أعيان البلاد، وسراة الناس في حسن المآكل والملابس والمراكب وعلو الهمة، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء وأجلاء الغزاة وأمجاد الحروب؛ وهي في نفسها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً، وبين المدينة والمدينة سور حصين حاجز، وبكل مدينة منها ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات والصناعات، وطولها ثلاثة أميال في عرض ميل واحد، وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى جبل القروش.

ومدينتها الثالثة وهي الوسطى، فيها باب القنطرة وبها الجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله، طوله ذراع في عرض ثمانين ذراعاً وفيه من السواري الكبار ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقود، أكبرها يحمل ألف مصباح، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه، وبقبلته صناعات تدهش العقول، وعلى فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة، تحير الروم والمسلمون في حسن وضعها. وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة، اثنان أخضران واثنان لازورديان، ليس لها قيمة. وبه منبر[2] ليس على معمور الأرض مثله في حسن صنعته، وخشبه ساج وأبنوس وبقس وعود قاقلي. ويذكر في كتب تواريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صناع، لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي، وكان جملة ما صرف على المنبر أجرة لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسي مثقال. وفي الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده. وبهذا الجامع مصحف فيه أربع ورقات من مصحف عثمان

حكامها العظام: الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١)، وابنه الحكم الثاني (٩٦١ -٩٧٦) و المنصور بن أبي عامر (٩٨١ - ١٠٠٢). خلافة قرطبة كانت أكبر الدول الأوروبية في القرن العاشر. وكانت منارة العلم في اوروبا والتى اخد عنها الاوروبيين العلم عن العرب المسلمين في مجالات كثيرة منها الطب والفلك والرياضيات والكيمياء.

(١) الخلافة : يعرفها الماوردي " خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا. والهدف منها هو إقامة الدين والالتزام بأحكامه سواء ما اتصل منها بأمور الدين المتعلقة بالعقيدة والعبادة ، أو تلك الأحكام المتعلقة بحياة الناس ومعاملاتهم.

(٢) المنبر : شرفة يعتليها الخطيب أو من يتلو المراسيم ويكون إما من الرخام أو الحجر المدهون أو الخشب القيم.

بن عفان[1] رضي الله تعالى عنه بخطه، أي بخط يده، وفيهن نقط من دمه. وله عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسي، مخرمات تخريماً يعجز البشر، وفي كل باب حلق، في نهاية الصنعة والحكمة. وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالملكي المعروف بالرشاشي، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته. وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على أحدها اسم محمد، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح. والجميع خلقة ربانية.

وبمدينة قرطبة القنطرة العجيبة[2] التي فاقت قناطر الدنيا حسناً وإتقاناً، وعدد قسيها سبعة عشر قوساً، كل قوس منها خمسون شبراً وبين كل قوسين خمسون شبراً. ومحاسن هذه المدينة أعظم من أن يحيط بها وصف.

ومن أقاليم جزيرة الأندلس إقليم أشبونة[3]. ومن مدنه أشبونة وهي مدينة

---

(١) عثمان بن عفان (٤٧ ق هـ ــ ٣٥ هـ) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص. قرشي أموي. أمير المؤلفين،وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة من السابقين إلى الإسلام. كان غنياً شريفاً في الجاهلية، وبذل من ماله نصرة الإسلام. زوجه النبي صلي اله علية وسلم بنته رقية، فلما ماتت زوجة بنته الأخرى أم كلثوم، فسمى ذا النورين بويع بالخلافة بعد أمير المؤمنين عمر. واتسعت رقعة الفتوح في أيامه. أتم جمع القرآن. وأحرق ماعدا نسخ مصحف الإمام. نقم علية بعض الناس تقديم بعض أقاربه في الولايات. قتله بعض الخارجين علية بداره يوم الأضحى وهو يقرأ القرآن. [الأعلام للزركلي ٤/ ٣٧١؛ و(عثمان بن عفان) لصادق إبراهيم عرجون ؛ والبدء والتاريخ ٥/ ٧٩].

(٢) وفي ذلك قال الشاعر : بأربع فاقت الأمصار قرطبة.... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة..... والعلم أعظم شئ وهو رابعها.

(٣) أشبونة : يصفها الحميري كالآتي : " بالأندلس من كور باجة المختلطة بها، وهي مدينة الاشبونة، والأشبونة بغربي باجة، وهي مدينة قديمة على سيف البحر تنكسر أمواجه في سورها، واسمها قودية، وسورها رائق البنيان، بديع الشأن، وبابها الغربي قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمدٍ من رخام مثبتةٍ على حجارة من رخام وهو أكبر أبوابها، ولها باب غربي أيضاً يعرف بباب الخوخة مشرف على سرح فسيح يشقه جدولا ماء يصبان في البحر، ولها باب قبلي يسمى باب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند مده وترتفع في سوره ثلاث قيم، وباب شرقي يعرف بباب الحمة، والحمة على مقربةٍ منه ومن البحر ديماس ماءٍ حارٍ وماءٍ باردٍ، فإذا مد البحر واراهما؛ وباب شرقي أيضاً يعرف بباب المقبرة.والمدينة في ذاتها حسنة ممتدة مع النهر، لها سور وقصبة منيعة؛ والأشبونة على نحر البحر

حسنة شمالي النهر المسمى باجة، الذي هو نهر طليطلة. والمدينة ممتدة مع هذا النهر، وهي على بحر مظلم وبها أسواق قائمة وفنادق عامرة وحمامات كثيرة، ولها سور منيع ويقابله على ضفة النهر حصن المعدن وسمي بذلك لأن البحر يمتد عند سيحانه فيقذف بالذهب التبر[1] إلى نحو ذلك الحصن وما حوله، فإذا رجع الماء قصد أهل تلك البلاد نحو هذا الحصن فيجدون به الذهب إلى أوان سيحانه أيضاً. ومن أشبونة هذه كان خروج المغرورين في ركوب البحر المظلم الذي في أقصى بلاد الغرب وهو بحر عظيم هائل غليظ المياه كدر اللون شامخ الموج صعب الظهر، لا يمكن ركوبه لأحد من صعوبته وظلمة متنه وتعاظم أمواجه وكثرة أهواله وهيجان رياحه وتسلط دوابه. وهذا البحر لا يعلم أحد قعره ولا يعلم ما خلفه إلا الله سبحانه وتعالى، وهو غور المحيط ولم يقف أحد من خبره على الصحة ولا ركبه أحد ملججاً أبداً، إنما يمر مع ذيل الساحل لأن به أمواجاً كالجبال الشوامخ، ودوي هذا البحر كعظم دوي الرعد لكن أمواجه لا تنكسر، ولو تكسرت لم يركبه أحد، لا ملججاً ولا مسوحلاً

حكاية: اتفق جماعة من أهل أشبونة، وهم ثمانية أنفس وكلهم بنو عم، فأنشئوا مركباً كبيراً وحملوا فيه من الزاد والماء ما يكفيهم مدة طويلة وركبوا متن هذا البحر ليعرفوا ما في نهايته ويروا ما فيه من العجائب، وتحالفوا أنهم لا يرجعون أبداً حتى ينتهوا إلى البر الغربي أو يموتوا. فساروا فيه ملججين أحد عشر يوماً، فدخلوا إلى

المظلم؛ وعلى ضفة البحر من جنوبه قبالة مدينة الأشبونة حصن المعدن؛ ويسمى بذلك لأن عند هيجان البحر يقذف بالذهب التبر هناك؛ فإذا كان الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذي به إلى انقضاء الشتاء، وهو من عجائب الأرض.ومن مدينة الأشبونة كان خروج المغرورين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه، ولهم بأشبونة موضع بقرب الحمة منسوب إليهم يعرف بدرب المغرورين، وذلك أن ثمانية رجال، كلهم أبناء عم، اجتمعوا فابتغوا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهرٍ، ثم دخلوا البحر في أولَ طاروس الريح الشرقية، فجروا بها نحواً من إحدى عشر يوماً؛ فوصلوا إلى بحرٍ غليظ الموج، كدر الروائح، كثير التروش، قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف، فردوا قلعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية اثنى عشر يوماً؛ فخرجوا ".

(١) التبر : فتات الذهب قبل أن يُصاغ (المعجم الوسيط ١ / ٨٤).

بحر غليظ عظيم الموج كدر الريح مظلم المتن والقعر كثير القروش، فأيقنوا بالهلاك والعطب، فرجعوا مع البحر في الجنوب اثني عشر يوماً فدخلوا جزيرة الغنم وفيها من الأغنام ما لا يحصي عددها إلا الله تبارك وتعالى، وليس بها آدمي ولا بشر، ولا لها صاحب، فنهضوا إلى الجزيرة وذبحوا من ذلك الغنم وأصلحوه وأرادوا الأكل فوجدوا لحومها مرة لا تؤكل: فأخذوا من جلودها ما أمكنهم، ووجدوا بها عين ماء فملئوا منها وسافروا مع الجنوب اثني عشر يوماً آخر، فوافوا جزيرة وبها عمارة فقصدوها، فلم يشعروا إلا وقد أحاط بهم زوارق، بها قوم موكلون بها، فقبضوا عليهم وحملوهم إلى الجزيرة فدخلوا إلى مدينة على ضفة البحر وأنزلوهم بدار، ورأوا بتلك الجزيرة والمدينة رجالاً شقر الألوان طوال القدود، ولنسائهم جمال مفرط خارج عن الوصف، فتركوهم في الدار ثلاثة أيام. ثم دخل عليهم في اليوم الرابع إنسان ترجمان وكلمهم بالعربي وسألهم عن حالهم فأخبروه بخبرهم، فأحضروا إلى ملكهم فأخبره الترجمان[1] بما أخبروه من حالهم، فضحك الملك منهم وقال للترجمان: قل لهم إني وجهت من عندي قوماً في هذا البحر ليأتوني بخبر ما فيه من العجائب، فساروا مغربين شهراً حتى انقطع عنهم الضوء وصاروا في مثل الليل المظلم، فرجعوا من غير فائدة، ووعدهم الملك خيراً. وأقاموا عنده حتى هبت ريحهم فبعثهم مع قوم من أصحابه في زورق وكتفوهم وعصبوا أعينهم وسافروا بهم مدة لا يعلمون كم هي، ثم تركوهم على الساحل وانصرفوا. فلما سمعوا كلام الناس صاحوا فأقبلوا إليهم وحلوا عن أعينهم وقطعوا كتافهم، وأخبروهم بخبر الجماعة، فقال لهم الناس: هل تدرون كم بينكم وبين أرضكم ؟ قالوا: لا قالوا: فوق شهر. فرجعوا إلى بلدهم. ولهم في أشبونة حارة مشهورة تسمى حارة المغرورين إلى الآن.

ومالقة[2] : وهي مدينة كبيرة واسعة الأقطار عامرة الديار، قد استدار بها من

---

(١) الترجمان : المفسر للسان والذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة الى أخرى (اللسان ١ / ٤٢٦).

(٢) مالقة Malaga : تقع جنوب شرق الأندلس وكانت مالقة مدينة ثانوية الأهمية في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي ولم تصبح ميناء تجاريًا على جانب من الأهمية في البحر الأبيض المتوسط سوى في

جميع جهاتها ونواحيها شجر التين المنسوب إلى زيد، وهو أحسن التين لوناً وأكبره جرماً وأنعمه شحماً وأحلاه طعماً، حتى إنه يقال ليس في الدنيا مدينة عظيمة محيط بها سور من حلاوة. عرض السور يوم للمسافرين إلى مالقة، ويحمل منها التين إلى سائر الأقاليم حتى إلى الهند والصين، وهو مسافة سنة لحسنه وحلاوته وعدم تسويسه ونقاء صحته. ولها ربضان عامران: ربض عام للناس وربض للبساتين. وشرب أهلها من الآبار، وبينها وبين قرطبة حصون عظيمة.

ومن أقاليم جزيرة الأندلس إقليم السيارات ومن مدنه المشهورة غرناطة[1] وهي مدينة محدثة. وما كان هناك مدينة مقصودة إلا البيرة [2] فخربت وانتقل أهلها إلى غرناطة. وحسن الصنهاجي هو الذي مدنها وبنى قصبتها وأسوارها ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بعده، وهي مدينة يشقها نهر الثلج المسمى سيدل وبدؤه من جبل سمكير، والثلج بهذا الجبل لا يبرح.

عهد الموحدين ومملكة بني نصر. وكان الملك الزيري باديس بن حبوس هو من بنى القصبة فوق القلعة القائمة آنذاك. دخلها المرابطون في خريف ١٠٩٠ وألحقوها بدائرة غرناطة. ويبرز من عمران المرابطين فيها تشييدهم للمساجد بصورة خاصة، كما اكتشف في قصبة المرابطين حي مكون من ثمانية منازل اقيمت على الأغلب في القرن الحادي عشر. وتتحدث المراجع عن قصر كان قائما في داخل القصبة. ثار قاضي المدينة ابن حسون على المرابطين في سنة ١١٤٥ وأعلن نفسه أميرا عليها. وكان لاستياء ابناء مالقة من حاكمهم أن طلبوا نجدة الموحدين الذي استجابوا للنداء وأقاموا حصارا على القلعة-القصر انتهى بانتحار ابن حسون. ولعب الموحدون الدور الأكبر في تطوير عمران المدينة إذ أنشأوا فيها البنى التحتية التي اعتمدها فيما بعد بنو نصر. بدأت حروب الاستيلاء على منطقة مالقة من قبل القشتاليين في سنة ١٤٨٢. فقد حاصر الملك فرناندو الكاثوليكي المدينة وحال دونها والتموّن وكانت مقاومة أهلها شديدة الى درجة أنها أصبحت اكثر الوقعات دموية في تأريخ سقوط مملكة غرناطة. وتم استسلام المدينة غير المشروط في ١٨ أغسطس من سنة ١٤٨٧ (راجع المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٨٦، ومعجم البلدان ج١٨، ٣٧٦).

(١) غرناطة Granada : وتعني باللغة الأسبانية " الرمانة " وهي شعار الأندلس التاريخي وتأريخ غرناطة حافل بالأساطير، ربما لأنها تحتضن قصور الحمراء ولأنها كانت آخر معقل لحضارة الأندلس العربية في شبه الجزيرة الايبرية للمزيد أنظر (محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، ج٨، ص ١٦٠).

(٢) البيرة : Ilbira : مدينة قديمة في الأندلس يرجع تاريخا الى العصر الروماني، تقع على نهير شنيل بالقرب من جبل يُرف باسمها وعلى مسيرة ميل وربع في الشمال الغربي لمدينة غرناطة.ولعبت دوراً كبيرا في تاريخ الدولة الأموية ونزل بها في عهد أبو الخطار حسام بن ضرار جند دمشق.

ومن المدن المشهورة المرية[1] وكانت مدينة الإسلام في أيام التمكين، وكان بها من جميع الصناعات كل غريب، وكان بها لنسج الطرز الحريرية ثمانمائة نول. ولحلل الحرير النفيسة والديباج[2] الفاخر ألف نول وللسفلاطون كذلك، وللثياب الجرجانية كذلك، وللأصبهاني مثل ذلك، وللعنابي والمعاجر المذهبة الستور والمكللة بالشرج، وكان يصنع بها صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مما لا يوصف. وكان بها أنواع الفاكهة العجيبة التي تأتيها من وادي بجاية ما يعجز عنه الواصف حسناً وطيباً وكثرة، وتباع بأرخص ثمن، وهذا الوادي طوله أربعون ميلاً في مثلها، كلها بساتين مثمرة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مغردة. ولم يكن في بلاد

---

(١) ألمرية Almaria : كانت باب الأندلس عبر امتداد تاريخه ومن خلالها أقام علاقات انسانية وتجارية مع العالم الاسلامي في القرون الوسطى. أسسها المسلمون عند مرسى روماني الأصل مدركين حسنات خليجه الذي يتيح الرسو كيفما جرت الرياح. منحها الخليفة عبد الرحمن الثالث صفة المدينة في سنة ٩٥٥، فبني مسجدها الجامع الذي كان يتسع لتسعة آلاف مصلي وأنشأ أسوارها. قلعتها ترجع الى عصر بني أمية وكانت مقرا لامراء وملوك المرية وهي أفضل ما وصل الينا من صروحها، فموقعها فوق قمة متطاولة لجبل منعزل يشرف على المدينة والخليج جعل منها معقلا حصينا بامتياز. أما أسوار المدينة التي بنيت ما بين القرنين العاشر والحادي عشر فكان يتخللها ما لا يقل عن ثلاثة عشر بابا. جعل المرابطون من ألمرية أهم مركز تجاري وصناعي وملاحي في الأندلس، فالمدينة كانت تنتج آنذاك كميات كبيرة من الأنسجة لكثرة المناسج المنزلية التي كانت تقوم عليها النسوة. وفي الآن ذاته قادت المرية التمرد الديني ضد المرابطين وغدت مركزا للمتصوفة برز فيه ابو العباس احمد بن العارف الذي كان له شأن كبير. سقطت المرية في سنة ١١٤٧ تحت سنابك جيش قشتالة بقيادة الملك الفونسو الثامن وبمساعدة جيوش قدمت من نافارّا وبيزا وجنوة. واستعادة المسلمين للمدينة أعاد مجرى الحياة اليها فعاودت الصلات التجارية مع شمال افريقيا والجمهوريات الايطالية، لكن شبه الجزيرة بدأت تفقد دورها كموزع للمنتجات ما بين الشرق والغرب، غير أن عودة المنفيين اليها مثّل دفعا مهما فرمّم المسجد الجامع والقيصرية والترسانات. تبعت المرية في آخر عهودها الاندلسية لمملكة غرناطة قبل أن يستولي عليها النصارى نهائيًا في سنة ١٤٨٩. مر بالمدينة وأقام فيها رجالات الفكر والعلوم من قبيل الشاعر ابن شرف والمتصوف ابن مسرّة الذي جعل من المدينة مركزا للنساك، والشيخ الأكبر ابن عربي المرسي (١٢٠٣-١١٦٥) الذي مر بها بعد اقامته في المغرب، والجغرافي احمد بن عمر العذري المولود في بلدة دلاية Dallas من كورة المرية والبكري الولبي الذي وضع في المدينة أعمالا مهمة والفيلسوف ابن باجة (راجع الروض المعطار للحميري، ص ١٨٣ – ١٨٤).

(٢) الديباج : مشتق من الدبج وهو النقش والتزيين وهو فارسي معرب وهو نوع من الأثواب الحريرية (المروج ١ / ٣١٢).

الأندلس أكثر مالاً من أهلها ولا أكثر متاجر ولا أعظم ذخائر، وكان بها من الفنادق والحمامات ألف مغلق إلا ثلاثين، وهي بين جبلين بينهما خندق معمور، على الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الجبل الآخر ربضها. والسور محيط بالمدينة والربض، وغربيهن ربض لها آخر يسمى ربض الحوض، ذو أسواق وحمامات وفنادق وصناعات، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة وأحجار أزلية وكأنما غربلت أرضها من التراب، ولها مدن وضياع متصلة الأنهار.

قرطاجنة[1]: مدينة أزلية كثيرة الخصب، ولها اقليم يسمى القندوق، قليل مثله في طيب الأرض ونمو الزرع. ويقال إن الزرع فيه يكتفي بمطرة واحدة. وكانت هذه المدينة في قديم الزمان من عجائب الدنيا لارتفاع بنائها واظهار القدرة فيه، وبها أقواس من الحجارة المقرنصة، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة. ومن عجيب بنائها الدواميس، وهي أربعة وعشرون داموساً على صف واحد من حجارة مقرنصة طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوة، وارتفاع كل واحد طول مائتي ذراع، بين كل داموسين أثقاب محكمة تصل فيها المياه من بعضها إلى بعض في العلو الشاهق، بهندسة عجيبة وإحكام بليغ، وكان الماء يجري إليها من شوتار وهي عين بقرب القيروان تخرج من جانب جبل، وإلى الآن يحفر في هدمها من سنة ثلثمائة فيخرج منها من أنواع الرخام[2] والمرمر[3] والجزع الملون ما يبهر الناظر، قاله الجواليقي.

---

(١) الرخام : ضرب من الحجر يتكون من كاربونات الكالسيوم المتبلورة الموجودة في الطبيعة ويمكن صقل سطحه بسهولة (المعجم الوسيط ١ / ٣٤٩).

(٢) تعد قرطاجنة من أقدم ثغور إسبانيا الشرقية، أنشأها "هزدرويال" القائد القرطاجني المعروف سنه (٢٤٣ ق.م)، وتمتاز بمناعة موقعها البري والبحري، وهي تقع جنوب مرسية على شاطئ البحر المتوسط، وظلت تتمتع بأهمية تجارية وبحرية في ظل الوجود الإسلامي بإسبانيا، وكانت مركزًا من مراكز الجهاد والغزو، تخرج منها الحملات الحربية، وبقيت تحت حكم المسلمين حتى سقطت نهائيًا في أيدي "خايمي الأول" ملك أراجون سنة (٦٧٥هـ = ١٢٧٦م) ولأن أكثر من مدينة سميت بقرطاجنة، فقد حرص العلماء على تسمية هذه المدينة بقرطاجنة الأندلس؛ تمييزًا عن أختها التي توجد بتونس.

(٣) المرمر : صخر رخامي جيري متحول يتركب من بلورات الكلسيت يُستعمل للزينة في البناء ولصنع التماثيل ونحوها (المعجم الوسيط ٢ / ٩٠٠).

ولقد أخبرني بعض التجار أنه استخرج منها ألواحاً من الرخام طول كل لوح أربعون شبراً في عشرة أشبار، والحفر بها دائم على ممر الليالي والأيام لم يبطل أبداً، ولا يسافر مركب أبداً، في البحر في تلك المملكة إلا وفيه من رخامها. ويستخرج منها أعمدة طول كل عامود ما يزيد على أربعين شبراً. وغالب الدواميس قائمة على حالها.

شاطبة[1] : وهي مدينة حسنة يضرب بحسنها المثل، ويعمل بها الورق الذي لا نظير له في الأقاليم حسناً.

قنطرة السيف[2]: وهي مدينة عظيمة، وبها قنطرة عظيمة وهي من عجائب الدنيا، وعلى القنطرة حصن عظيم منيع الذرى.

طليطلة[3]: وهي مدينة واسعة الأقطار عامرة الديار، أزلية من بناء العمالقة

---

(١) تقع شاطبة على سفح جبل فيرنيسا Vernissa لتشرف على سهل خصب كان في أزمنة غابرة ثغرا حدوديا. ما زالت جدران قلعتها القديمة بادية للعيان، وقد اعتبرت بعد سقوطها في يد النصارى من أمنع قلاع مملكة أراغون. في الطرف الجنوبي من المدينة تصادفنا بعض آثار قصبتها الاسلامية كأجزاء من السور والأبراج. أفل الاسلام في شاطبة سنة ١٢٤٨ بعد أربع سنوات من سقوطها في يد ملك أراغون خايمي الاول اذ أقدم النصارى على طرد أهلها من المدينة..

(٢) يذكر الحميري عن حصنها " وهو حصن بينه وبين ماردة يومان وهو حصن منيع على نهر القنطرة، وأهلها متحصنون فيه، ولا يقدر لهم أحد على شيء، والقنطرة لا يأخذها القتال إلا من بابها فقط، والقنطرة هذه قنطرة عظيمة على قوسٍ من عمل الأول، في أعلاها سيف معلق لم تغيره الأزمنة ولا يدري ما تأويله.

(٣) طليطلة (Toledo) : طليطلية مدينة قديمة للغاية، ويغلب أنها بنيت زمن الإغريق. ازدهرت طليطلة في عهد الرومان، فحصنوها بالأسوار، وأقاموا فيها المسرح والجسر العظيم. وعندما جاء الفتح الإسلامى لها على يد طارق بن زياد عام (٧١٢م) بعد واقعة وادى لكة على القوط، وظلت طليطلة بعد الفتح تتمتع بتفوقها السياسى على سائر مدن الأندلس. اسم طليطلة تعريب للاسم اللاتيني "توليدوث" (Tholedoth) وكان العرب يسمون طليطلة مدينة الأملاك لأنها كانت دار مملكة القوط ومقر ملوكهم.عبر مؤرخو العرب عن عظمة موقع طليطلة، من ذلك ما ذكره الحميري في كتابه الروض المعطار في عجائب الأقطار إذ يقول: «وهي على ضفة النهر الكبير، وقل ما يرى مثلها إتقانا وشماخة بنيان، وهى عالية الذرى، حسنة البقعة»، ثم يقول في موضع آخر: «ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، وقلاع منيعة، وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المعروف بالشارات».وفى عهد محمد بن عبدالرحمن الأوسط عام (٢٣٣هـ) خرجت عليه طليطلة فبرز إليها

الأولى العادية ولها أسوار حصينة لم ير مثلها إتقاناً أو متاعاً، ولها قصبة عظيمة وهي على ضفة البحر الكبير يشقها نهر يسمى باجة ولها قنطرة عجيبة وهي قوس واحد، والماء يدخل من تحته بشدة جري، وفي آخر النهر ناعورة طولها تسعون ذراعاً بالرشاشي، يصعد الماء إلى أعلى القنطرة فيجري على ظهرها ويدخل إلى المدينة.

وكانت طليطلة دار مملكة الروم، وكان فيها قصر مقفل أبداً، وكلما تملك فيها ملك من الروم أقفل عليه قفلاً محكماً؛ فاجتمع على باب القصر أربعة وعشرون قفلاً، ثم ولي الملك رجل ليس من بيت الملك، فقصد فتح تلك الأموال على عدم فتحها فلم يرجع، وأزال الأقفال وفتح الباب فوجد فيها صور وحذروه وجهدوا به، فأبى إلا فتحها، فبذلوا له جميع ما بأيديهم من نفائس الأموال على عدم فتحها فلم يرجع، وأزال الأقفال الباب فوجد فيها صور العرب على خيلها وجمالها وعليهم العمائم المسبلة متقلدين السيوف وبأيديهم الرماح الطوال والعصي، ووجد كتاباً فيه: إذا فتح هذا الباب تغلب على هذه الناحية قوم من الأعراب على صفة هذه الصور، فالحذر من فتحه الحذر

قال ففتح في تلك السنة الأندلس طارق بن زياد[1] في خلافة الوليد بن عبد

بنفسه وهزمهم، وانتظمت في عهد خلافة عبد الرحمن الناصر، وازدهر فيها فن العمارة. استقل بنو ذي النون بطليطلة بعد سقوط الخلافة بقرطبة "وهم أسرة من البربر"، وتولى عبد الملك بن متيوه أمر طليطلة، وأساء إلى أهليها فاتفقوا عليه، استقل ابنه إسماعيل بها، وترك شئونها إلى شيخها أبى بكر الحديدى، وتوفى إسماعيل، وخلفه ابنه يحيى بن إسماعيل الذى توفى، وتولى حفيده القادر بالله يحيى الذى ثار عليه أهل طليطلة لقتل ابن الحديدى فاستعان بألفونسو السادس ملك قشتالة الذى دخلها عام (١٠٨٥م). وبذلك تكون قد سقطت طليطلة في أيدى النصارى.حكم بنو يعيش طليطلة بين عامي ١٠٠٩ - ١٠٢٨ حيث كان قاضي المدينة أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش وهي حالياً مدينة بمنطقة كاستيا لا منتشا في وسط أسبانيا. يبلغ عدد سكانها حوالي ٧٣،٠٠٠ نسمة. تقع على بعد ٧٥ كيلو متر من مدريد العاصمة الأسبانية. وتقع على مرتفع منيع تحيط به أودية عميقة وأجراف عميقة، تتدفق فيها مياه نهر تاجة. ويحيط وادي تاجة بطليطلة من ثلاث جهات مساهما بذلك في حصانتها ومنعتها.

(١) طارق بن زياد الليثي : قائد مسلم في جيش الدولة الأموية من قبائل البربر التي تعيش شمال أفريقيا، و قد فتح الأندلس سنة ٧١١م. يعتبر طارق بن زياد من أشهر القادة العسكرين في التاريخ و يحمل جبل طارق جنوب أسبانيا أسمه حتى يومنا هذا و قد توفي في سنة ٧٢٠م. ولد طارق بن زياد فى

الملك[1] من بني أمية، وقتل ذلك الملك شر قتلة ونهب ماله وسبى من بها وغنم أموالها، ووجد بها ذخائر عظيمة، من بعضها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوناً تلعب فيه الرماحة بأرماحهم قد ملئ من أواني الذهب والفضة مما لا يحيط به وصف، ووجد بها المائدة[2] التي لنبي الله

القرن الأول من الهجرة وأسلم على يد موسى بن نصير، وكان من أشد رجاله، فحينما فتح موسى بن نصير طنجة ولى عليها طارقا سنة ٨٩ هـ وأقام فيها إلى أوائل سنة ٩٢ هـ ولما أراد موسى بن نصير غزو الأندلس جهز جيشا من ١٢ ألف مقاتل معظمهم من البربر المغربيون، وأسند قيادة الجيش إلى طارق بن زياد وتمكن من فتح الأندلس بالتعاون مع موسي ابن نصير، ولم يعرف بعد ذلك مصيره بعد ذلك.

(١) الوليد بن عبد الملك : هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. ولد عام ٥٠ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان. بويع بولاية العهد في عهد أبيه وأصبح خليفة للمسلمين عام ٨٦ هـ بعد وفاة أبيه. ترك عبد الملك للوليد دولة مترامية الأطراف هادئة مستقرة مما ساعده على القيام بالاصلاحات الكثيرة. توسعت الدولة الاسلامية في الشرق والشمال والغرب ففتحت بلاد ما وراء النهر (تركستان حاليا) وأصبح المسلمون على أبواب الصين واصبحت بلاد الأندلس تحت الحكم العربي، وامتد الاسلام الى جنوب آسيا الصغرى وتطلع المسلمون الى فتح القسطنطينية. وكان الوليد يرسل في كل غزوة لبلاد الروم أحد بنيه مما يدل على اهتمامه بهذه الجبهة. اهتم الوليد بالاصلاح الداخلي فواصل تعريب الدواوين واهتم بالمرضى والمقعدين فسهر على راحتهم وأكرم حفظة القرآن وقضى عنهم ديونهم. ونالت حركة العمارة والبنيان اهتمام الوليد فبنى مسجد الصخرة المشرفة وأقام المسجد الأموي في دمشق ووسع الحرم المكي والحرم النبوي. واهتم باصلاح الطرق وحفر الآبار وزودها بما يلزم من خانات تساعد على راحة المسافرين وتخفف ما يلاقونه من مشاق ومتاعب. من قادة الوليد ومساعديه عمر بن عبد العزيز والحجاج بن يوسف الثقفي وموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم. كانت وفاة الوليد عام ٩٦ هـ بعد حكم دام قرابة عشر سنوات.

(٢) قاد طارق بن زياد جيش المسلمين في معركة وادي لكة بينه وبين القوط الغربيين وأغلب الظن أن هذه المعركة فيها قتل رودريك (لذريق) ملك القوط. اتجه بعدها طارق شمالا نحو إشبيلية ففتحها، وكلف بفتح قرطبة، ومالقة، ثم فتح طليطلة عاصمة الأندلس، وتوجه شمالا فعبر وادى الحجارة، ووواديا أخر سمى فج طارق، وكان بذلك قد تمكن من فتح عدة مدن منها مدينة سالم التى يقال إن طارقا عثر فيها على مائدة سليمان (وذكروا أنه كان لمائدة سليمان عليه السلام في كل سنة إحدى عشر ألف ثور وخمسمائة ثور وزيادة وستة وثلاثين ألف شاة سوى الإبل والصيد فانظروا ماذا يكفي لحومن ذكرنا من الخبز وقد ذكروا عدداً مبلغه ستة آلاف مدى في العام لمائدتهخاصة واعلموا أن بلاد بني إسرائيل تضيق عن هذه النفقات هذا مع قولهم أنهعليه السلام كان يهدي كل سنة ثلثي هذا العدد من بر ومثله من زيت إلى ملكصور فليت شعري لأي شيء كان يهاديه بذلك هل ذلك إلا لأنه كفؤه ونظيره فيالملك وهذه كلمات كذبات ورعونة لا خفاء بها وأخبار متناقضة. وذكروا أنهكانت

سليمان[1] بن داود عليهما السلام[2]، وكانت على ما ذكر من زمرد أخضر. وهذه المائدة إلى الآن في مدينة رومية باقية، وأوانيها من الذهب وصحافها من اليشم والجزع. ووجد فيها الزبور[3] بخط يوناني في ورق من ذهب مفصل بجوهر، ووجد مصحفاً محلى فيه منافع الأحجار والنبات والمعادن واللغات والطلاسم وعلم السيمساء والكيمياء.

ووجد مصحفاً فيه صناعة أصباغ الياقوت والأحجار وتركيب السموم والترياقات، وصورة شكل الأرض والبحار والبلدان والمعادن والمسافات، ووجد قائمة كبيرة مملوءة من الأكسير، يرد الدرهم[4] منه ألف درهم من الفضة ذهباً إبريزاً.

توضع في قصر سليمان عليه السلام كل يوم مائة مائدة ذهب على كل مائدةمائة صفحة ذهب وثلاثمائة طبق ذهب على كل طبق ثلاثمائة كأس ذهب فأعجبوالهذه الكذبات الباردة. واعلموا أن الذي عملها كان ثقيل الذهن في الحسابمقصراً في علم المساحة لأنه لا يمكن أن يكون قطر دائرة الصفحة أقل من شبروإن لم تكن كذلك فهي صحيفة لا صحفة طعام ملك فوجب ضرورة أن تكون مساحة كلمائدة من تلك الموائد عشرة أشبار في مثلها لا أقل سوى حاشيتها وأرجلها.واعلموا أن مائدة من ذهب هذه صفتها لا يمكن ألبتة أن يكون في كل مائدة منتلك الموائد أقل من ثلاثة آلاف رطل ذهب فمن يرفعها ومن يضعها ومن يغسلهاومن يمسحها ومن يديرها فهذا الذهب كله وذا الأطباق من أين؟).

(١) هو من الرسل الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل بعد أبيه داود عليهما السلام، وقد انفردا من بين الرسل بأن الله آتاهما الملك والنبوة. وقد ذكر الله سليمان في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، فقال تعالى في سورة النساء: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا...} [النساء: ١٦٣] وقد أوصى داود عليه السلام بالملك لولده سليمان، ولما مات داود ورثه سليمان في الملك، وكان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة سنة، وكان سليمان - على حداثة سنه - ممن آتاهم الله الحكمة والفطانة وحسن السياسة.

(٢) داوُد أو داود أو داؤود : معناه "محبوب"، هو ثاني ملك على مملكة إسرائيل المتحدة (١٠١١ ق.م. - ٩٧١ ق.م.) وأحد أنبياء بني إسرائيل. ويُعتبر أحق وأنزه ملك من بين ملوك إسرائيل التاريخيين، وهو صاحب مزامير داود الشهيرة.

(٣) الزبور Zabur : هو الكتاب الذي نزل على نبي الله داود ويسمى في التوراة " مزامير داود " ويحتوي على ١٥٠ مزموراً واشتق منها لفظة المزمار التي تصحب الاناشيد (أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي، مجلد ٣، ص ٢٤) وكان داود ـ عليه السلام ـ حسن الصوت، جميل الإنشاد، إذا قرأ الزبور تكف الطير عن الطيران، وتقع على الأغصان، ترجع بترجيعه، وتسبح بتسبيحه.

(٤) الدرهم : فارسي معرب والجمع دراهم وهو ستون عشيرا (المروج ٢ / ٣٤٢).

ووجد مرآة مستديرة عجيبة من أخلاط قد صنعت لسليمان عليه السلام، إذا نظر الناظر فيها رأى الأقاليم السبعة فيها عياناً ورأى مجلساً فيه من الياقوت والبهرمان وسق بعير. فحمل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك، وتفرق العرب في مدنها. وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مغدقة ورياض وفواكه مختلفة الطعوم والألوان، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ورساتيق[1] مريعة وضياع وسيعة وقلاع منيعة، وشمالها جبل عظيم معروف بجبل الإشارات، به من البقر والغنم ما يعم البلاد كثرة وغزراً.

* * *

(١) الرستاق : معرب ويستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم والرزداق بالزاي والدال مثله والجمع رساتيق ورزاديق قال ابن فارس الرزدق السطر من النخل والصف من الناس ومنه الرزداق وهذا يقتضي أنه عربي وقال بعضهم الرستاق مولد وصوابه رزداق (اللسان ٣ / ١٦٤٠).